

إدوارد سعيد

أثرد في العالم... وفينا



الراحل... دائماً

□ سنان أنطون

أطروحتي، عن رأيه الشخصي بسعيد. كنت أتطلع إلى هذه الفرصة منذ زمن. فالرجل، الذي أكن له عميق الاحترام وأجل إحاطته بالتراث العربي الإسلامي ومعرفته الموسوعية بكل ما له علاقة باللغة والأدب العربيين، نتاج المؤسسة الاستشراقية ذاتها التي حطمت أسسها إدوارد سعيد، ويكاد يكون من الرعيل الأخير ممن تلقوا علومهم على الطريقة الكلاسيكية، كما أنه أحد محرري موسوعة الإسلام الضخمة. لكنه كان يختلف عن النموذج التقليدي بحبه واحترامه العميق لتقافات الآخر، وكذلك - وهذا هو الأهم - بوعيه بالتبعات السياسية والأخلاقية للإنتاج المعرفي وتورط المعرفي أو الأكاديمي بالسياسي والعلاقة الجدلية بينهما. وهذا ما كنت ألسه من قبل، لكنه تأكد لي عندما قال يوماً: «ما كتبه سعيد غاية في الأهمية. كان يجب أن يكتب. وأنا أتفق معه في كل ما قاله.» ثم أضاف: «لكن المشكلة الوحيدة هي أنني لا يمكن أن أسمي نفسي مستشرقاً بعد اليوم!» وكان بذلك يشير إلى تغير دلالات مصطلح «الاستشراق» ومكانة المستشرق في الخطاب الثقافي بعد ظهور كتاب سعيد، ورابطهما بكل ما هو سلبي وعنصري، وكشفت تورطهما بالخطاب والممارسات الإمبريالية وما تلاها من تمظهرات.

إن تغير معاني ودلالات مصطلح ما هو إنجاز بحد ذاته. لكنني أسوق هذه الواقعة البسيطة لرمزيتها، وكمدخل للحديث عن الثورة المعرفية التي أضرمها سعيد بمفرده. قد يعرف الكثير من القراء والقارئات العرب إدوارد سعيد كناقد وناشط سياسي دافع باستماتة وحتى الرمق الأخير (حرفياً لا مجازياً) عن القضية الفلسطينية، وحارب من أجلها في خنادق الغرب الثقافية. لكنهم قد لا يعرفون ما يكفي عن سعيد المفكر الكوني والناقد الثقافي، الذي وُلد منه سعيد الناقد والمحلل والمحارب السياسي. كم نرانا من دموع ساعة رحيله، وهناك المزيد الذي ينتظر. لكن أجمل احتفاء بسعيد هو المحافظة على التركة الثمينة التي خلفها لنا، وعلى الرأس مال الفكري والرمزي الذي أهدانا إياه، وذلك بالتعمق فيه وقراءته وتطبيقه. وما أحوجتنا، اليوم بالذات، إلى الترسنة الفكرية التي فتحت أبوابها، خصوصاً ونحن ندخل في غياهب إمبراطورية جديدة ونعرق، في الوقت ذاته، في ظلمات محلية، متحالفة - بوعي أحياناً، وبدونه في معظم الأحيان - مع مشروع الإمبراطورية الجديدة. وهاهنا يأتي دور المثقف (والناقد) العلماني الذي كان سعيد أروع من جسده في كتاباته وفي ممارساته، وكان النموذج الذي دعا إليه في محاضراته ومقالاته.

العالم، النص، الناقد

لا يتسع المجال هنا للإطالة بسيطة ومقتضبة على مشروع سعيد النظري، الذي أنجب حقلاً معرفياً جديداً ونظرياً بأكملها هي ما سمي بـ «دراسات ما بعد الاستعمار». وسأكتفي بتأمل عنوان وفكرة أحد أهم كتبه: العالم، النص، الناقد. إن تأملاً بسيطاً كهذا يمكن أن يكون نافذة نرى من خلالها إلى شذرات من مشروعه الثقافي وبعض تضاريسه المتميزة. إضافة إلى أن الأفكار العظيمة غالباً ما تتميز ببساطتها وسلاستها!

«إننا في صميم العالم، مهما صرنا ما أننا في البرج العاجي
المثقف كالناحي من سفينة نحطمت. فهو يتعلم كيف يعيش مع الأرض، لا عليها
يجب ألا يعيش كروبنسون كروزو. الذي كان هدفه استعمار الجزيرة الصغيرة،
بن كماركو بولو، الذي لا يخطئ حدسه بالعجيب، والدائم الترحال.»

«الكونية تعني المضاطرة، وبذلك لكي نتجاوز اليقين السهل الذي نكتسبه من خلفيتنا ولغتنا وجنسيتنا، والتي تحجبنا في الغالب، عن حقيقة الآخرين.»

«لا أحد يحب لنفسه، فقط هناك دائماً الآخر وهذا الآخر سيحوّل التخسب إلى ممارسة اجتماعية مرتبطة بنتائج وجمهور.»

إدوارد سعيد

ما بعد سعيد

كنا نقاش مقاربات المستشرقين للشعر الجاهلي، وذلك في حلقة دراسية في أولى سنوات الدكتوراه، ونتجادل بشأن أحكامهم والأسس الإيديولوجية التي كانت قراءاتهم تتعكز عليها. واستشهد أحدنا، كالعادة، بإدوارد سعيد وبقهرته الاستشراق، ذلك النص الذي ركّز حقل دراسات الشرق الأوسط وأسقط أوثان الاستشراق وكهنته من عروشهم، فاتحاً لنا - نحن الذين جئنا بعد صدره - أفقا معرفياً جديداً، وواهباً إيانا ترسانة ضخمة مازلنا نهل منها وسنظل. انتهزت الفرصة لأسأل أستاذي، والمشرف على

الثقافة و الإمبريالية



يبقى الجبروت الثقافي شريكاً وصنواً للجبروت الإمبريالي
كما علمنا سعيد

الأدب والثقافة

شخصية
كمال أبو ديب

نور الدين

في سياقات تاريخية وسياسية، وارتباطهما (النص والقراءة)، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بمؤسسات وخطابات معينة. وبذلك تمّ التغاضي عن مساهمتهما في إعادة إنتاج هذا الخطاب أو ذلك، وعن مسؤولية عمليتي القراءة والنقد وخطورتهما. وتكتسب مواقف سعيد أهمية خاصة في هذا السياق عند مقارنتها بالاتجاهات العدمية للتفكيكية التي انتقدتها أكثر من مرة. فلقد رأى سعيد أنّ «النصانية الصرفة ستعيد النقد إلى حيز الغامض والديني»، وهو ما يناقض النقد العلماني الذي ينادي به والذي «يتعامل مع الظروف المحلية والعالمية ويقف ضدّ إنتاج النظم».

ولعلّ ما يميّز سعيداً أيضاً هو نجاحه في الموازنة بين مقولتي «النص» و«العالم»، وإعطاء كلّ منهما حقّها من دون تحجّر أو تسطيح. فرفض النصانية الصرفة لا يعني أبداً السقوط في فخّ المقاربات الماركسية الفجة. هنا يدكرنا سعيد في مقدمة الثقافة والإمبريالية بأنّ «الإيديولوجيا والطبقة والتاريخ الاقتصادي لا تحدّد، مسبقاً، وبصورة ميكانيكية، الكتاب. لكنّ هؤلاء الكتاب هم في صميم تاريخ مجتمعاتهم، يؤثرون فيه ويشأثرون به بدرجات متفاوتة. إنّ الثقافة والصيغ الجمالية التي تتضمنها تنبع من التجربة التاريخية».

قد يقول قائل إنّ مقارنة كهذه، بالرغم من توازنها، قد تضحي ببعض القيم الجمالية في النصوص بالنظر إليها على أنّها محضّ تمظهرات لهذا الخطاب أو ذلك. وقد يقول إنّ مقارنة كهذه تصادير براءة النصوص. لكنّ الأمر أعقد من هذا بكثير. إذ لا تُنزع المقاربة النقدية للنص الأدبي، وكشف تورطه وارتباطه بالتاريخ الاجتماعي، الاستمتاع به ولا تقدير جماليته في الوقت ذاته. «إنّ المثير في الأدب، وفي كلّ شيءٍ آخر، ليس نقاءه، بل المدى الذي يمتزج فيه بأشياءٍ أخرى كثيرة!»

الناقد/المثقف كرحالة

يبقى التحدي الأكبر هو أنّ يظلّ الناقد/المثقف يقظاً ومترصداً لكي لا يتحجّر ويضحي أسير خطاب أو أسلوبه ونظريته. ولكنّ هل هناك موضع يوتوبي لا يقع في مدار هذه السلطة المعرفية أو تلك، أو تحت سطوة هذا الخطاب أو ذلك؟ هل هناك حيز لا تعيد فيه مؤسسة ما إنتاج نفسها وعلاقات القوة التي تصنعها؟ بالطبع لا. لكنّ الوعي النقديّ اللامساوم هو الذي سيمكن الناقد من الحفاظ على الاستقلالية النسبية ومن ألاّ يصبح مجرداً بغياء للسلطة - سواء كانت سلطة معرفية أو سياسية أو غير ذلك. وما أجمّل تشبيه سعيد المثقف (النقدي الحقيقي) بماركو بولو: فعليه أن يظلّ ضيفاً في الأقاليم الإيديولوجية والنظرية، يسجّل مشاهداته، ويُعجب بما يتعرف عليه، ويقارنه بمشاهداته الأخرى، ولكنّ من دون أن يستوطن ويؤسس مملكة، وإلاّ همش واضطهد أو أسهم في ذلك. لذلك فإنّ عليه دائماً أن يشدّ الرحال إلى آفاق أخرى، ويكتشف، ويعيد الاكتشاف من جديد. فالسفن الإيديولوجية تتحطّم، والآلهة - بكلّ أنواعها - دائماً تفشل. والثابت الوحيد هو التغيير والاكتشاف المستمر والبدائيات الجديدة.

يقودنا ماركو بولو والآلهة الفاشلة إلى مفهوم المثقف العلماني الذي استلهمه سعيد من فيكو (وغرامشي). فهناك الزمن الديني، زمن الآلهة والأصول: وهناك الزمن العلماني التاريخي، الذي

إنّ العلاقة الجدلية بين هذه المقولات الثلاث التي عبّر عنها سعيد كتابه المذكور، ومقدار الثقل الذي تعطيه أيّ مقارنة نقدية لكلّ منها، سيحدّدان بالضرورة المسار الذي تتخذه عملية إنتاج المعنى وما يترتب على ذلك من نتائج أخرى فيما بعد.

يبدأ سعيد من «العالم» بقصدية، للتذكير - بل للتشديد - على وجود النص وقارنه (أو ناقده) في هذا العالم، وعلى كونهما تحت تأثير القوى والمؤسسات التي تكوّنته وتعيد إنتاجه، وللتذكير أيضاً بارتباطهما الوثيق بها. فلا مفرّ من العالم ومن التاريخ والتاريخانية.

إنّ مقارنة النص، لأيّ نصّ، في فراغ، مستحيلة. وإذا تمت، أو حُكّل لامرئ ما أنّها تمت، فإنّ إقناع (أو بالأحرى تضليل) الناقد والقارئ بإمكانية إتمام قراءة كهذه هو في حدّ ذاته فعلٌ سياسيّ يحاول إخفاء ارتباط النصّ بسياقه التاريخي والسياسي، ويحاول من ثمّ التعامي عن مسؤولية الناقد.

وهكذا تظلّ العلاقة الجدلية الفوكوية بين السلطة (التي تتمظهر في المؤسسات ويعاد إنتاجها من خلال خطابها وممارساتها) والمعرفة، وتبقى هي حجر الأساس في مشروع سعيد. لقد ظلّ يركّز على مفهوم «العالمانية» worldliness حتى في أوج الحقبة التي انجرف فيها الكثيرون والكثيرات نحو النصّ والنصانية، في قراءات أهملت أو تجاهلت حقيقة وجود النصّ وعملية القراءة نفسها

يُصنعه الإنسانُ ويسيرُه ويعيش فيه. ومهمة المثقف العلماني، حسب سعيد، هي: «إظهارُ غياب الأصل الديني من جهة، وإظهارُ الحضور المعقّد للحقيقة التاريخية من جهة أخرى. إنَّ التغيير العلماني هو تحويلُ غياب الدين إلى حضور الحقيقة.»

قد لا يروقُ البعضُ هذا الكلامُ، وهذا حسن. فـ «أخرُ ما يجب أن يقوم به المثقف هو أن يجعل جمهوره يشعر بالراحة. بل عليه أن يُخرِج وينقُص ويكون مزعجاً.» وهذا ما علّمنا إياه سعيد.

المليسترو في الأداء

كان سعيد الموسيقيّ متبحراً في عوالم الموسيقى، عزفاً ونقداً وتأملاً. ولعلّ المرء يشعُر بتداخل الموسيقى في كتاباته وأسلوبه. فنراه في كتاباته كالمليسترو: يُسمعنا صدى فيكو ونيتشه وغرامشي وفُوكو وآخرين، منتقلاً بينهم بخفة. محظوظون أيضاً أولئك الذين تسنى لهم أن يروا سعيداً ويستمتعوا إليه وهو يلقي محاضراته؛ فقلّما وُجدَ متكلّمٌ له ذلك الحضورُ الجارفُ والأداءُ الرائع. لقد كان الأداء لا يقلُّ روعةً وأهميةً عن القول، بل يَعْكسه ويبلوره. سلاسة وأناقة في الأسلوب، مقرونتان بشراسةٍ في الدفاع عن أفكاره في مواجهة الأسئلة، ولاسيّما

سنان أنطون

الخبيثة. شراسة تُنبئ من الإيمان بالعدالة. كان شامخاً على المنبر، كما في النصّ، يُشعرك برهبة الحقيقة، ويُحيي الأمل.

إنَّ الإمبراطورية الأمريكية التي طالما انتقدها سعيد هي الآن في عقر دارنا، بكلّ جبروتها العسكريّ الوحشيّ، وبالخطاب الرثّ الذي استخدمته إمبراطورياتُ أخرى من قبل وحلّل سعيد تظاهراته في الأدب الغربيّ. لكنّ خطورة هذه الإمبراطورية الجديدة تكمن في أخطوبيتها واستشرائها في نخاع الحياة اليومية لسكان العالم بأكمله، بصيغٍ ودرجاتٍ مختلفة. يبقى الجبروتُ الثقافيّ شريكاً وصنواً للجبروت الإمبرياليّ والاستعماريّ، كما علّمنا سعيد. فمع القصف المباشر بالقنابل والصواريخ، ثمة قصف آخر هائل بالنصوص المرئية والمسموعة والمقروءة، وكذلك بالسلع (التي تعمل عمل النصوص في اللاوعي). وهذا القصف يسبق ويهيئ ويواكب ويرسّخ القصف الآخر. إنَّ شراسة وشراهة هذه الإمبراطورية الجديدة تعنيان أيضاً تعدُّد ساحات المقاومة بكافة أشكالها، في «العالم» وفي «النص». وعلينا، كمثقفين ونقاد، أن نبقي في خضمّ الاثنين، وعياً وممارسة، مثلما كان سعيد.

أما التطرف الظلامي المحليّ فهو أكثرُ ظلاماً من قبل. وبين هذا التطرف وتلك الإمبراطورية أنظمتُ تتسابق في تقديم فروض الطاعة للإله الجديد، وتتفنن في سحق مواطنيها. هذا هو العالم كما أراه اليوم. وربما أراه بهذا الوضوح، وأؤمن بضرورة النقد المزدوج والمقاومة، لأنّ تركة سعيد جزءٌ أساسيٌّ من تكويني الفكريّ والنقديّ، كعراقيّ ولا بد لي هنا من أن أعرِّج على الحملة التي شنّها أحدُ المثقفين الذين يروّجون اليوم للمشروع الأميركيّ ويعملون رسمياً مع وزارة الدفاع الأميركية. وكان قد شنّها منذ أكثر من عقد، وأعاد اجترارها آخرون ضدّ سعيد مؤخراً، فأنهّموه - زوراً - بالسكوت عن جرائم صدّام! والذي يعرف القراءة ويكلّف نفسه متابعة تاريخ كتابات سعيد يعلمُ أنّه لم يفوتْ فرصةً إلاّ ونددَ فيها بطغيان صدّام ووحشية نظامه، مثلما فعل مع كلّ الأنظمة العربية. والمفارقة أنّ سعيداً كان يفعل هذا قبل عقدين من الزمن، عندما كانت قوافلُ المثقفين العرب والأجانب تتسابق على موائد صدّام ومهرجاناته التي رَفَضَ سعيد حضورها، وعندما كان هؤلاء الأقزام غارقين في صمتهم! لقد كان سعيد معارضاً، بالغريزة، لكلّ سلطة مهما كان نوعها ولونها. نقرأ في العالم، النصّ، الناقد: «على النقد أن يكون ضدّ أيّ شكل من أشكال الطغيان والهيمنة والعسف، ويجب أن يكون هدفه الاجتماعيّ هو إنتاج المعرفة التي تُهدف إلى الحرية الإنسانية.»

سيسجّل له العراقيون باعتراز دائم وقوفه في كتاباته ضدّ الدكتاتورية وضدّ الحصار وضدّ الحرب، وبوضوح وثبات شامخين. ومثل نجم بعيد، قد يكون إدوارد سعيد ميمناً إلاّ أنّه سيظلّ يضيء هذا الليل.

دارتموث (الولايات المتحدة)

كاتب عراقيّ شاب وهو في صعد إنّهاء أضروجه الدكتوراه في الأدب العربيّ من جامعة هارفرد. يترنّس في دارتموث كونديج صدرت له مؤجّراً رواية عن دار الآداب بعنوان إعجاب